

محمود ميعاري*

أثر الانتفاضة في الهوية الجماعية في الضفة الغربية وقطاع غزة**

يهدف هذا البحث إلى دراسة أثر انتفاضة الأقصى، التي اندلعت في الضفة الغربية وقطاع غزة في أيلول/سبتمبر 2000، في الهوية الجماعية في هاتين المنطقتين. وبالتحديد، يحاول البحث الإجابة عن الأسئلة الآتية: كيف يعرف سكان الضفة الغربية وقطاع غزة هويتهم؟ ما الأهمية التي يعطونها لأبعاد (أو مركبات) هذه الهوية؟ هل أثرت انتفاضة الأقصى في الهوية وفي مختلف أبعادها؟

أولاً: إطار نظري***

تعتبر الهوية (Identity) من أهم القضايا التي تواجه المجتمعات النامية، أو ما كان يعرف قبل انهيار المعسكر الشيوعي بالعالم الثالث. والهوية، باختصار، هي تعريف الشخص لنفسه إذا ما سئل "من أنت؟". وما يعنينا هنا هو أحد أنواع الهوية، ألا وهو الهوية الجماعية (Collective Identity). والهوية الجماعية تعني تعريف الشخص لنفسه من خلال الجماعة، أو الجماعات التي ينتمي إليها. بكلمات أخرى: الهوية الجماعية لشخص ما تعني شعوره بالانتماء إلى جماعة، أو جماعات معينة هو عضو فيها.

تتكون الهوية الجماعية للشخص من عدة مركبات (أو هويات فرعية)، وذلك بعدد الجماعات أو الدوائر التي ينتمي إليها. فالفلسطيني، مثلاً، ينتمي إلى حمولة (أو

(*) أستاذ مساعد في دائرة علم الاجتماع في جامعة بيرزيت.

(**) هذه الدراسة جزء من بحث مشترك بين جامعة بيرزيت في فلسطين ومعهد أبحاث السلام والتنمية (PADRIGU) في جامعة غوتبورغ في السويد بدعم مؤسسة سيدا/سارك السويدية. والكاتب يقدم جزيل شكره إلى هذه المؤسسة.

(***) الجزء الأكبر مما يرد في هذا الإطار النظري سبق أن نشر في: محمود ميعاري، "ديمقراطيون بلا هوية"، "مجلة العلوم الاجتماعية" (جامعة الكويت)، المجلد 28، العدد 1 (ربيع 2000)، ص 7 - 10.

عشيرة)، وإلى مجتمع محلي (مدينة، أو قرية، أو مخيم)، وإلى شعب فلسطيني وأمة عربية وعالم إسلامي أو مسيحي. وبالإضافة إلى هذه الجماعات ذات الانتماء الإرثي (لأن الشخص يولد فيها)، هنالك جماعات انتماء ذات طابع طوعي، مثل الحزب والمنظمة المهنية. وهكذا، فإن الهوية الجماعية للفلسطيني في الضفة الغربية وقطاع غزة تتكون من عدة هويات فرعية، أهمها الهوية الحمائلية (أو العشائرية)، والمحلية (أو المنطقية)، والدينية (الإسلامية أو المسيحية)، والوطنية (الفلسطينية)، والقومية (العربية). هذا فضلاً عن هويات فرعية طوعية، مثل الهوية الحزبية والهوية المهنية.

والهوية ليست ثابتة، وإنما قابلة للتغير من فترة إلى أخرى. فالهوية السائدة لدى الفلسطينيين، ولدى بقية العرب في أواخر العهد العثماني، كانت الهوية الإسلامية، وربما العثمانية أيضاً. فقد نظر المسلمون العرب إلى الإمبراطورية العثمانية باعتبارها دولة الخلافة، ورأوا أنهم يعيشون في دولتهم ويساهمون في خدمتها (البديري 1995، ص 7 - 8). وخلال الحرب العالمية الأولى، وبصورة خاصة بعد انهيار الإمبراطورية العثمانية في نهاية تلك الحرب، تقدمت الهوية العربية على منافستها، العثمانية والإسلامية، وحظيت بتأييد شعبي واسع. ذلك بأن الوحدة العربية، أو وحدة فلسطين مع سورية، اعتبرت الوسيلة الوحيدة لمنع إقامة الوطن القومي اليهودي في فلسطين (Porat 1975, pp. 121-122).

بعد الحرب العالمية الأولى، ومع فصل فلسطين عن سورية، ووضعها تحت الانتداب البريطاني، وتكثيف الاستيطان الصهيوني فيها، بدأت تنمو بالتدريج هوية وطنية فلسطينية تقوم على الانتماء إلى فلسطين باعتبارها وحدة منفصلة عن سورية (براند 1991، ص 14). ومع ذلك بقيت الهوية الوطنية الفلسطينية في عهد الانتداب ضعيفة نسبياً بسبب تعزيز الهويات الضيقة، وخصوصاً الهوية الحمائلية (أو العشائرية). ولقد تمثل ذلك في النزاع الحاد والمستمر بين عائلتي الحسيني والنشاشيبي بشأن السيطرة والزعامة في فلسطين (Nashif 1977, p. 120). وفضلاً عن الهويات العائلية والمحلية والحزبية الضيقة، تعززت الهوية القومية العربية حتى غدت الدول العربية المجاورة، منذ أواسط الثلاثينات، صاحبة القول الفصل في قضايا أهالي فلسطين العرب (البديري 1995، ص 16).

لم يحقق اعتماد عرب فلسطين على الدول العربية نتائج المرجوة. فقد انتهت حرب 1948 بخسارة العرب وإقامة دولة إسرائيل على جزء من أرض فلسطين. أما بقية فلسطين فقد وُضع جزء منها (قطاع غزة) تحت الإدارة المصرية، وضم الجزء الآخر (الضفة الغربية) إلى الأردن. وأدى قيام إسرائيل إلى تشريد نحو 700,000 عربي فلسطيني من ديارهم، وتوزيعهم في الضفة الغربية وقطاع غزة والدول العربية المجاورة (ولا سيما الأردن، ولبنان، وسورية). وعززت خسارة العرب في حرب 1948 عملية تعريب الصراع ضد الخطر الصهيوني في فلسطين (Porat 1975, p. 125). وبقيت الهوية القومية العربية هي الأقوى بين العرب الفلسطينيين، في أغلب تجمعاتهم، خلال العقدين اللذين أعقبا "نكبة" 1948.

بقيت الهوية الفلسطينية ضعيفة حتى قيام منظمة التحرير الفلسطينية سنة 1964. وبقيت هذه الهوية ضعيفة، بصورة خاصة، لدى الفلسطينيين داخل إسرائيل، الذين تحولوا بعد حرب 1948 إلى أقلية محبطة، ومن دون قيادة، معزولة عن أمتها وبقية شعبها، وممزقة (أو مفككة) بسبب تطبيق نظام الحكم العسكري عليها (ميعاري 1992، ص 42 - 44؛ 1986، ص 216 - 217). وكانت الهوية الفلسطينية ضعيفة أيضاً لدى الفلسطينيين في الأردن والضفة الغربية، إذ اتخذت الدولة الأردنية خطوات نشيطة لإضعافها أو أردنتها (البديري 1995، ص 8؛ صايغ 1983، ص 136).

مثل قيام منظمة التحرير الفلسطينية في أواسط الستينات، لدى الفلسطينيين، نقطة تحول نحو الاستقلال. وتعزز هذا الميل (أو الطموح) بعد حرب حزيران/يونيو 1967 (Porat 1975, p. 125) التي أدت إلى احتلال إسرائيل بقية أجزاء فلسطين: الضفة الغربية وقطاع غزة. ونجم عن ذلك أن تضاءلت ثقة الجماهير الفلسطينية بالأنظمة العربية، وتعزز لديها الاعتقاد أن على الفلسطينيين أن يؤديوا دوراً نشيطاً وقيادياً في معركتهم لتحرير فلسطين (صايغ 1983، ص 184). وبالنسبة إلى الأراضي الفلسطينية فقد تعزز، بعد الحرب، الاتصال الشخصي والتفاعل الاجتماعي بين الفلسطينيين الذين يعيشون تحت السيطرة الإسرائيلية (داخل إسرائيل، وفي الضفة الغربية، وفي قطاع غزة)، وانتعشت هويتهم الوطنية الفلسطينية.

في العقود الثلاثة الأخيرة تعززت الهوية الفلسطينية في التجمعات الفلسطينية كافة. فهناك دراسات كثيرة أثبتت، مثلاً، تعزز هذه الهوية وسيطرتها بين الفلسطينيين داخل إسرائيل (حيدر 1990 و1997؛ ميعاري 1986 و1992؛ Smootha 1989 & 1992؛ Rouhana 1984). أمّا في الضفة الغربية وقطاع غزة، فإن اندلاع انتفاضتين كبيرتين في كانون الأول/ديسمبر 1987 وفي أيلول/سبتمبر 2000، لهما أصدق مؤشر إلى تعزز الهوية الوطنية الفلسطينية. وفي بحث ميداني أُجري على طلبة جامعة بيرزيت سنة 1994، أي بعد توقيع اتفاق أوسلو ببضعة أشهر، وجد أن الهوية الفلسطينية هي الأقوى بين طلبة الجامعة، تليها، بحسب الترتيب، الهوية المحلية (الانتماء إلى المدينة أو القرية أو المخيم)، ثم الهوية العربية، فالهوية الدينية، وأخيراً الهوية الحمائلية أو العشائرية (Mi'ari 1998, p. 59).

ثانياً: منهجية البحث

(أ) مجتمع البحث والعينة

يتكون مجتمع البحث من سكان الضفة الغربية وقطاع غزة البالغين، أي الذين تبلغ أعمارهم 18 عاماً فأكثر. ويرتكز البحث على بيانات تم جمعها في تشرين الأول/أكتوبر 1997، وعلى بيانات أخرى تم جمعها في تموز/يوليو وآب/أغسطس 2001. وقد تم جمع بيانات سنة 1997 من عينة ممثلة تتكون من 1410 أشخاص؛ وهي عينة عشوائية عنقودية طبقية تم اختيارها على ثلاث مراحل. في المرحلة الأولى تم اختيار عينة وحدات جغرافية أو خلايا (60 وحدة أو خلية) تمثل مجموع الوحدات الجغرافية التي تتكون منها الضفة الغربية وقطاع غزة. وكل وحدة جغرافية تكونت بالمعدل من 120 أسرة. وفي المرحلة الثانية تم اختيار عينة أسرفي كل وحدة جغرافية (26 أسرة تقريباً). أمّا في المرحلة الثالثة، فقد تم اختيار أحد الأفراد البالغين (18 عاماً فأكثر) من كل أسرة في العينة، وذلك باستخدام جداول "كش". ومن الجدير ذكره أن الباحثين الميدانيين اختاروا، عشوائياً، أحد الأفراد البالغين في كل أسرة مختارة بعد أن تم تدريبهم جيداً على ذلك. وبالإضافة إلى كون العينة عنقودية (cluster sample)، ذلك بأنها تتكون من وحدات جغرافية أو خلايا، فهي أيضاً عينة طبقية (stratified sample). وقد تم توزيع العينة إلى "طبقات" (أو فئات) بحسب المحافظة (تمثل كل

المحافظات، وضمنها القدس)، ومكان السكن (مدن وقرى ومخيمات)، وحجم التجمع السكاني. ومن الجدير بالذكر أن هذه "الطبقات" (أو الفئات) تهدف إلى زيادة فعالية تصميم العينة بحيث تصبح العينة أكثر تمثيلاً لمجتمع البحث.

أمّا بيانات سنة 2001، فقد تم جمعها من عينة ممثلة تتكون من 1492 شخصاً. وهذه العينة أيضاً عينة عشوائية عنقودية طبقية، وتم اختيارها على ثلاث مراحل وبالطريقة نفسها التي تم اختيار عينة سنة 1997.

ومن الجدير ذكره أن جهاز الإحصاء المركزي الفلسطيني قام بتصميم العينة واختيارها، وأشرف أيضاً على عملية جمع البيانات. فقد قام فريق العمل الميداني في هذا الجهاز بجمع بيانات المسح الأول في الفترة 14 - 1997/10/30، وبيانات المسح الثاني في الفترة 7/19 - 2001/8/5.

وعلى الرغم من أن تصميم العينة أخذ في الحسبان توزيعها بحسب المحافظة ومكان السكن وحجم التجمع السكاني، فقد تم توزيع (weighting) البيانات وفق هذه الأبعاد، لضمان تمثيلها في العينة بنسبها نفسها في المجتمع. هذا مع العلم أن لا فوارق ملحوظة بين التوزيعات التكرارية الموزنة وغير الموزنة.

(ب) المتغيرات وقياسها

المتغير الرئيسي في هذا البحث هو الهوية الجماعية. وقد تم قياسها بواسطة مجموعتين من الأسئلة. ركزت المجموعة الأولى على الشعور بالانتماء إلى جماعات متباينة، وشملت الأسئلة التالية:

- كم تشعر أنك تنتمي إلى حمولتك؟
- كم تشعر أنك تنتمي إلى بلدك (مدينتك، أو قريرتك أو مخيمك)؟
- كم تشعر أنك تنتمي إلى جماعتك الدينية (أي أنك مسلم أو مسيحي)؟
- كم تشعر أنك فلسطيني؟
- كم تشعر أنك عربي؟

أمّا المجموعة الثانية، فقد ركزت على الاستعداد للتضحية من أجل خدمة كل واحدة من الجماعات التالية: الحمولة (أو العشيرة)، والمجتمع المحلي (أو البلد)، والجماعة الدينية، والشعب الفلسطيني، والأمة العربية. ففيما يتعلق بالهوية الحمائلية،

مثلاً، صيغ السؤال التالي: "كم أنت مستعد للتضحية (بالجهد والمال والوقت) من أجل خدمة حملتك؟" وصيغت أسئلة مشابهة بالنسبة إلى الهويات الأخرى. تدرجت الإجابات عن أسئلة المجموعة الأولى كالتالي: تشعر قليلاً جداً، تشعر قليلاً، تشعر بدرجة متوسطة، تشعر كثيراً، تشعر كثيراً جداً. أما الإجابات عن أسئلة المجموعة الثانية فقد تدرجت: غير مستعد، مستعد إلى حد ما، مستعد، مستعد كثيراً. وبالإضافة إلى هذه الأسئلة المتعلقة بالهوية، سئل أفراد العينة سؤالاً مقلداً كالتالي: "لو طلب منك أن تعرّف هويتك بكلمة واحدة، ماذا كنت تقول؟" وكانت الإجابات عن هذا السؤال: مسلم أو مسيحي، عربي، فلسطيني، وغير ذلك.

(ج) طريقة التحليل

ترتكز طريقة التحليل المتبعة في هذا البحث على مقارنة التوزيعات التكرارية للأسئلة المتعددة في مسحي 1997 و2001. وبما أننا نفترض أن انتفاضة الأقصى، التي اندلعت في الضفة الغربية وقطاع غزة في أواخر أيلول/سبتمبر 2000، هي أكبر حدث تعرض له سكان هاتين المنطقتين في الأعوام القليلة الماضية، فإننا نرجع التغيرات في الهوية في مسح 2001 (قياساً بمسح 1997) إلى انتفاضة الأقصى.

ثالثاً: نتائج البحث

تتكون الهوية الجماعية، كما أوضحنا، من عدة هويات فرعية، وذلك بعدد الجماعات التي ينتمي الشخص إليها. فهوية الفلسطيني في الضفة الغربية وقطاع غزة تشتمل على هويات فرعية، أهمها الهوية الحمايلية (أو العشائرية)، والهوية المحلية، والهوية الدينية، والهوية الفلسطينية، والهوية العربية. وقد تم قياس كل هوية بواسطة سؤالين: سؤال عن شعور الانتماء إلى الجماعة المعنية، وآخر عن الاستعداد للتضحية من أجلها.

(أ) ترتيب الهويات

يوضح الجدول رقم 1 أدناه أن الهويات التي تمت دراستها هي كلها هويات قوية بصورة عامة. فأغلبية كبيرة من أفراد العينة تشعر بالانتماء إلى الحمولة، ومكان السكن، والجماعة الدينية، والشعب الفلسطيني، والأمة العربية. وأغلبية واضحة منهم مستعدة أيضاً للتضحية من أجل خدمة هذه الجماعات. من ناحية أخرى، فإن الهوية

الجدول رقم ١

شعور سكان الضفة الغربية وقطاع غزة بالانتماء إلى عدد من الجماعات
واستعدادهم للتضحية من أجل خدمتها، ١٩٩٧ و ٢٠٠١ (نسب مئوية)

الاستعداد للتضحية من أجل **		الشعور بالانتماء إلى *		جماعات الانتماء
٢٠٠١	١٩٩٧	٢٠٠١	١٩٩٧	
٨٢,٣	٧٢,٦	٨٢,٤	٧٢,٢	الحمولة (أو العشيرة)
٩٠,٠	٨٣,١	٩٢,٥	٨٤,٨	مكان السكن (المدينة أو القرية أو المخيم)
٩٠,٥	٨٠,٦	٩١,٩	٧٨,٣	الجماعة الدينية (الإسلامية أو المسيحية)
٩٢,٣	٨٧,٦	٩٦,١	٩٢,٩	الشعب الفلسطيني ***
٥٩,٩	٦٢,٨	٨٩,٥	٨٦,٩	الأمة العربية ***

(*) أفراد العينة الذين أجابوا "يشعر كثيراً"، أو "كثيراً جداً". أمّا الباقون فأجابوا "يشعر بدرجة متوسطة"، أو "يشعر قليلاً"، أو "يشعر قليلاً جداً".

(**) أفراد العينة الذين أجابوا "مستعد كثيراً"، أو "مستعد". أمّا الباقون فأجابوا "مستعد إلى حد ما"، أو "غير مستعد".

(***) بالنسبة إلى الشعور بالانتماء إلى الشعب الفلسطيني سئل أفراد العينة "كم تشعر أنك فلسطيني؟"، وعن شعورهم بالانتماء إلى الأمة العربية سئلوا "كم تشعر أنك عربي؟".

الأقوى، في مسحي 1997 و2001، هي الهوية الوطنية الفلسطينية. فالشعور الأكبر بالانتماء لدى سكان الضفة الغربية وقطاع غزة هو إلى الشعب الفلسطيني، والاستعداد الأكبر للتضحية لديهم هو من أجل خدمة هذا الشعب.

إن تحليل كل مؤشر للهوية على انفراد يشير إلى أن الشعور الوطني الفلسطيني هو الأقوى، كما أوضحنا، بينما الشعور الحمائلي هو الأضعف، في المسحين، لدى سكان الضفة الغربية وقطاع غزة. فنسبة أفراد العينة الذين يشعرون بالانتماء إلى الحمولة (أو العشيرة) أقل من نسبة أفراد العينة الذين يشعرون بالانتماء إلى أي جماعة أخرى. ويتوسط هذين الشعورين بالانتماء (الوطني والحمائلي) الشعور بالانتماء إلى الأمة العربية، ومكان السكن، والجماعة الدينية (العالم الإسلامي بالنسبة إلى المسلمين، والعالم المسيحي بالنسبة إلى المسيحيين).

وبالنسبة إلى الاستعداد للتضحية، تشير النتائج إلى أن هذا الاستعداد يزيد، كما

أوضحنا أيضاً، عندما يوجه إلى خدمة الشعب الفلسطيني، ويضعف أكثر عندما يوجه إلى خدمة الأمة العربية. فالاستعداد للتضحية من أجل الأمة العربية أقل من الاستعداد للتضحية من أجل أي جماعة انتماء أخرى. ومن الواضح أن هناك فجوة كبيرة بين نسبة أفراد العينة الذين يشعرون بأنهم عرب (87% سنة 1997، و90% سنة 2001)، وبين أفراد العينة المستعدين للتضحية من أجل خدمة الأمة العربية (63% و60% على التوالي).

يتضح مما تقدم أن الهويات التي تمت دراستها في هذا البحث كلها قوية بصورة عامة. فالمواطنون الفلسطينيون في الضفة الغربية وقطاع غزة، في أغليبتهم، يشعرون بالانتماء في آن واحد إلى الشعب الفلسطيني والأمة العربية والجماعة الدينية والمجتمع المحلي والحمولة، ومستعدون للتضحية، في آن واحد أيضاً، من أجل خدمة هذه الجماعات. والسؤال الآن هو: ما هي الهوية الرئيسية (أو الأهم) بالنسبة إلى سكان الضفة والقطاع؟ فرداً على سؤال "لو طلب منك أن تعرّف هويتك بكلمة واحدة، ماذا كنت تجيب؟"، أجاب أفراد العينة في مسح 2001، في معظمهم (55%)، بأنهم فلسطينيون، وأجابت أقلية كبيرة منهم (36%) بأنها مسلمة أو مسيحية. أما في مسح 1997، فقد تساوت تقريباً نسبة الذين عرفوا أنفسهم بأنهم فلسطينيون ونسبة الذين عرفوا أنفسهم بأنهم مسلمون أو مسيحيون (أنظر الجدول رقم 2).

الجدول رقم ٢
الهوية الرئيسية لسكان الضفة الغربية
وقطاع غزة، ١٩٩٧ و ٢٠٠١ (نسب مئوية)

٢٠٠١	١٩٩٧	الهوية الرئيسية
٣٦,٢	٤٥,٠	مسلم أو مسيحي
٤,٣	٦,٤	عربي
٥٤,٥	٤٤,٤	فلسطيني
٥,٠	٤,٢	غير ذلك
١٠٠,٠	١٠٠,٠	المجموع
١٤٩٠	١٣٨٦	العدد

(ب) أثر الانتفاضة في الهوية

إن المنهجية الصحيحة لدراسة أثر الانتفاضة في الهوية، كما ذكرنا سابقاً، تقتضي جمع بيانات عن الهوية قبيل اندلاع الانتفاضة، وبيانات أخرى خلال الانتفاضة، ومقارنة هذه البيانات بعضها ببعض. وبما أن من المتعذر جمع بيانات قبيل الانتفاضة بسبب عدم معرفة موعد حدوثها، فإننا نستعوض عن مثل هذه البيانات ببيانات تم جمعها قبل نحو خمسة أعوام (أي في سنة 1997). ونحن نفترض أن انتفاضة الأقصى هي أهم حدث تعرض له سكان الضفة الغربية وقطاع غزة في الأعوام القليلة الماضية. ولذلك فإننا نرجع التغيرات في الهوية بين سنة 1997 وسنة 2001 إلى انتفاضة الأقصى.

نعود إلى الجدول رقم 1 لنقارن البيانات في المسحين المذكورين. وتشير هذه المقارنة إلى أنه لم يحدث بين سنة 1997 وسنة 2001، أي تغيرات كبيرة في مؤشري الهوية. ففي المسحين نلاحظ، كما ذكرنا، أن هنالك أغلبية كبيرة من أفراد العينة تشعر بالانتماء إلى الجماعات المتعددة، وأغلبية واضحة أيضاً من أفراد العينة مستعدة للتضحية من أجل خدمة هذه الجماعات. مع ذلك نلاحظ أن الهويات الحمائية والمحلية والدينية تعززت قليلاً خلال الانتفاضة. فقد زاد في مسح 2001 الشعور بالانتماء إلى الحمولة ومكان السكن والجماعة الدينية، وزاد قليلاً أيضاً الاستعداد للتضحية من أجل خدمة هذه الجماعات. وقد تعود هذه الزيادة إلى الممارسات الإسرائيلية في الضفة والقطاع خلال الانتفاضة (ممارسات الإغلاق، والحصار، وتقطيع الأوصال، وإيقاف الحركة، والاتصال بين مختلف المناطق). وبالنسبة إلى الهويتين الفلسطينية والعربية يوضح الجدول رقم 1 أنه لم تتغير بصورة ملحوظة خلال الانتفاضة، ذلك بأن الفوارق بين المسحين ضئيلة جداً ويمكن إهمالها.

أوضحنا أنه لم يحدث تغير كبير بشأن الهويات الفرعية، وخصوصاً الهويتين الفلسطينية والعربية، خلال الانتفاضة (الجدول رقم 1). لكن من الملاحظ أن تغيراً كبيراً حدث بشأن الهوية الرئيسية. فالجدول رقم 2 يوضح أن الهوية الوطنية الفلسطينية، كهوية رئيسية، تعززت خلال الانتفاضة، وأصبحت هي الهوية الأقوى. فقد زادت نسبة الذين يعرفون هويتهم الرئيسية كفلسطيني من 44% سنة 1997 إلى 55% سنة 2001. وفي المقابل تراجع الهوية الدينية، كهوية رئيسية، من 45% إلى

36% على التوالي. ويعود تعزيز الهوية الوطنية كهوية رئيسية وتراجع الهوية الدينية كهوية رئيسية أيضاً، خلال الانتفاضة، إلى كون الانتفاضة تمثل صراعاً وطنياً، وليس دينياً، ضد الاحتلال الإسرائيلي.

خلاصة

تناولنا في هذا البحث موضوع الهوية الجماعية في الضفة الغربية وقطاع غزة وأثر انتفاضة الأقصى في هذه الهوية. وأوضحنا في الإطار النظري أن الهوية ليست جامدة أو ثابتة، وإنما قابلة للتغير من فترة إلى أخرى. فقد تغيرت الهوية الرئيسية للعرب في فلسطين من هوية إسلامية (وربما عثمانية)، في أواخر الحكم العثماني، إلى هوية عربية (مرافقة بهوية فلسطينية نامية) في عهد الانتداب البريطاني وفي العقود اللذين أعقبا حرب 1948. وبعد حرب حزيران/يونيو 1967، واحتلال إسرائيل الضفة الغربية وقطاع غزة، أخذت الهوية الفلسطينية تتعزز لدى الفلسطينيين في المناطق المحتلة، وفي إسرائيل أيضاً، إلى أن أصبحت الهوية الأقوى في العقدين الأخيرين.

يوضح البحث الحالي أن سكان الضفة الغربية وقطاع غزة يعرفون أنفسهم بعدة هويات فرعية. فالأغلبية الكبيرة منهم تعرّف نفسها في آن واحد بأنها فلسطينية وعربية ومسلمة أو مسيحية، وأنها أيضاً تشعر بالانتماء إلى حماتها (أو عشائرها)، وأماكن سكنها. كما أن أغلبية واضحة منهم تعرب عن استعدادها للتضحية من أجل خدمة جماعات الانتماء هذه. مع ذلك يوضح البحث أن الهوية الوطنية الفلسطينية هي الأقوى بين هذه الهويات الفرعية، القوية أصلاً. وإذا ما سئل سكان الضفة والقطاع عن هويتهم الرئيسية تجيب أغليبتهم بأنها فلسطينية، وأقلية كبيرة منهم تعرّف نفسها دينياً (مسلمة، أو مسيحية).

وبالنسبة إلى أثر الانتفاضة في الهوية، تشير نتائج البحث إلى أن الانتفاضة ساهمت في تعزيز الهويات الحمائلية والمحلية والدينية، كهويات فرعية. ومن الجدير ذكره أن هذه الهويات التقليدية كانت قوية أيضاً قبل انتفاضة الأقصى، وأن السلطة الفلسطينية ساهمت في تقويتها من خلال بناء نظام سياسي قائم على "الزبائنية"؛ ذلك النظام الذي يسيطر فيه الحاكم الفرد بشكل مباشر على الإدارة العامة، ويلجأ إلى نسج علاقات تقوم على الولاء الفردي له وتحويل الموارد إلى مشايخه (هلال 1998،

ص 195-196). وجاءت انتفاضة الأقصى فعززت هذه الهويات، القوية أصلاً، بسبب السياسة الإسرائيلية المتمثلة في إغلاق الضفة والقطاع، وفي فرض الحصار على المدن والقرى والمخيمات، وفي إيقاف الحركة والتنقل بين مختلف المناطق. أما الهوية الفلسطينية، كهوية فرعية، فكانت أقل من الهويات التقليدية متأثراً بالانتفاضة. ويعود ذلك إلى أن هذه الهوية كانت قوية جداً قبل الانتفاضة، ولذلك فإن أي زيادة في قوتها خلال الانتفاضة تبقى طفيفة. فقد ارتفعت نسبة أفراد العينة الذين يشعرون بأنهم فلسطينيون من 93% قبل الانتفاضة إلى 96% خلال الانتفاضة. ومن الصعب، وربما من غير الممكن، أن ترتفع هذه النسبة أكثر.

من الواضح أن الهويات الفرعية كانت كلها قوية قبل الانتفاضة، وبقيت قوية، أو زادت قوة، خلال الانتفاضة. ومن الواضح أيضاً أن الهوية الفلسطينية كانت قبل الانتفاضة، وبقيت خلالها، أقوى هذه الهويات. ويتضح ذلك أكثر عند الحديث عن الهوية الرئيسية (أو الأهم) بالنسبة إلى سكان الضفة والقطاع. فتشير النتائج هنا بوضوح إلى أن الانتفاضة ساهمت في تعزيز الهوية الفلسطينية كهوية رئيسية، وفي إضعاف الهوية الدينية كهوية رئيسية أيضاً. إذ زادت نسبة الذين يعرفون هويتهم الرئيسية كفلسطيني من 44% سنة 1997 إلى 55% سنة 2001، وتقلصت نسبة الذين يعرفون هويتهم الرئيسية كمسلم أو مسيحي من 45% إلى 36% على التوالي. ويعود تعزيز الهوية الفلسطينية كهوية رئيسية، وتراجع الهوية الدينية كهوية رئيسية أيضاً، خلال انتفاضة الأقصى، إلى كون الانتفاضة تمثل صراعاً وطنياً أكثر منه دينياً ضد الاحتلال الإسرائيلي. هذا بالإضافة إلى تبني الانتفاضة قيم المقاومة والتحرر والاستقلال، من ناحية، وإلى تكثيف ممارسات القمع الإسرائيلية في الضفة والقطاع، من ناحية أخرى. ■

المراجع

- أبو عمرو، زياد (1987). "أصول الحركات السياسية في قطاع غزة". عكا: دار الأسوار.
- البديري، موسى (1995). "الفلسطينيون بين الهوية القومية والهوية الدينية". مجلة الدراسات الفلسطينية، العدد 21 (شتاء 1995)، ص 3 - 27.
- براند، لوري أ. (1991). "الفلسطينيون في العالم العربي: بناء المؤسسات والبحث عن الدولة". بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية.
- حيدر، عزيز (1990). "أشكال التعبير السياسي بين الفلسطينيين العرب في إسرائيل". مجلة العلوم الاجتماعية (جامعة الكويت)، المجلد 18، العدد 1، ص 14 - 25.
- (1997). "الفلسطينيون في إسرائيل في ظل اتفاقية أوسلو". بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية.
- صايغ، روز ماري (1983). "الفلاحون الفلسطينيون من الاقتلاع إلى الثورة". ترجمة خالد عايد. القدس: وكالة أبو عرفة للصحافة والنشر، الطبعة الثانية.
- مركز القدس للإعلام والاتصال (1995). "نتائج استطلاع حول رأي الفلسطينيين بالديمقراطية". القدس.
- ميعاري، محمود (1986). "تطور الهوية السياسية للفلسطينيين في إسرائيل". مجلة العلوم الاجتماعية (جامعة الكويت)، المجلد 14، العدد 1، ص 215 - 233.
- ____ (1992). "هوية الفلسطينيين في إسرائيل: هل هي فلسطينية - إسرائيلية؟". مجلة الدراسات الفلسطينية، العدد 10 (ربيع 1992)، ص 40 - 60.
- ____ (2000). "ديمقراطيون بلا هوية". مجلة العلوم الاجتماعية (جامعة الكويت)، المجلد 28، العدد 1، ص 7 - 36.
- هلال، جميل (1998). "النظام السياسي الفلسطيني بعد أوسلو: دراسة تحليلية نقدية". بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية؛ رام الله: مواطن، المؤسسة الفلسطينية لدراسة الديمقراطية.
- Mi'ari, M. (1998). "Self-identity and Readiness for Interethnic Contact among Young Palestinians in the West Bank." *Canadian Journal of Sociology*, 23 (1), pp. 47-70.
- Nashif, T. (1977). "Palestinian Arab and Jewish Leadership in the Mandate Period." *Journal of Palestine Studies*, vol. vi, no. 4 (Summer 1977), pp. 113-121.
- Porat, Y. (1975). "The Palestinian-Arab National Movement," in M. Curtis. ed. *The Palestinians*. New Brunswick, New Jersey: Transaction Books.
- Rouhana, N. (1984). "The Arabs in Israel: Psychological, Political and Social Determinants of Collective Identity." Ph.D. Dissertation. Detroit, Michigan: Wayne State University.
- Smootha, S. (1989). "The Arab Minority in Israel: Radicalization or Politicization?." *Studies in Contemporary Jewry* 5. New York: Hebrew University of Jerusalem, Institute of

- Contemporary Jewry, pp. 59-88 (Published for the Institute by Oxford University Press).
- _____ (1990). "Minority Status in an Ethnic Democracy: The Status of the Arab Minority in Israel." *Ethnic and Racial Studies*, 13 (3), pp. 389-413.
- _____ (1992). *Arabs and Jews in Israel*. Boulder: Westview Press.

مجلة الدراسات الفلسطينية، جميع حقوق النشر وإعادة التوزيع محفوظة لمجلة الدراسات الفلسطينية، ولا يمكن نشرها أو توزيعها إلكترونياً إلا بإذن من رئيس تحرير المجلة وذلك عبر الكتابة إلى العنوان البريدي التالي: majallat@palestine-studies.org
يمكن تحميل هذه المقالة أو طبعها للاستخدام الفردي وعند الاستخدام يرجى ذكر المصدر:
<http://www.palestine-studies.org/ar/mdf>